

بيان طبيعة الأدلة في القرآن الكريم

obeikandi.com

بيان طبيعة الأدلة

يعتمد القرآن الكريم في منهج الدعوة الاستدلالي على بيان طبيعة الأدلة، لما لتلك القاعدة من آثار قوية إلى جانب غيرها من القواعد.

على أن طبيعة الأدلة يتوقف عليها نجاح الداعي في إقناع المدعو بقضيته التي يدعو إليها، ويدلل على صحتها .. والعقل إذا كان يقتضي الدليل، ويطلب طرح ما عند الغير من دلالات على صحة دعواه فهو لا يطلب أي دليل، وإنما يريد من الأدلة ما يقنعه وما يشبع نهمه من تطلع إلى المعرفة الجادة، وإرواء نظراته النقدية، وتأملاته التحليلية، واتجاهاته الوصفية، وصيغه البنائية وإجابته عما يطفر أمامه من تساؤلات، وما يعنُّ له من مشكلات، وما يطرأ له من قضايا، وما يواجهه من أزمات.

فصيح العقول تقتضي أن تكون الأدلة على مستوى راق يتناسب مع طبيعة الإدراك العقلي، ويتناغم مع وسائله، ولو لم تأت الأدلة على هذا النحو ما قنع العقل منها بشئ، وربما كانت مظنة الاتهام بالقصور، وعدم الارتقاء إلى مستوى الإقناع، وبالتالي ستقابل بالاستهجان والاستغراب، وربما الإنكار.

ولأن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، ولأن الله تعالى خبير بصنعتة، فقد جاء منهج الاستدلال الدعوي في القرآن الكريم، ليراعي من خلال هذه القاعدة طبيعة العقل، ومدى طموحه وطبيعة عمله، وقدراته وطاقاته وإمكاناته ووسائله.

من ثم نجده يطرح للعقل الكثير من الأدلة، ويعلمه صيغ البناء الدلاليّ الصحيح، وما ينبغي أن يتوفر فيه، وما يجب أن يُنأى عنه من خلال طبيعة أدلته، وطبيعة منهجه في بنائها.

ولذا توفرت أدلة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على معالم متعددة توضح طبيعتها، وتبين قدرتها على الإقناع، وقوتها من حيث "الهدم والبناء"، و "الإثبات والنفي".

وتبدو طبيعة هذه الأدلة من حيث أنها:

- ١- ربانية.
- ٢- محيطية وشاملة.
- ٣- بينة.
- ٤- متفقة مع الواقع.
- ٥- منسجمة مع العقل.
- ٦- مؤثرة.
- ٧- قاطعة.
- ٨- ملزمة.

تأصيل قاعدة بيان طبيعة الأدلة

المبحث الأول

ربانية الأدلة

تعد " **ربانية الأدلة** " واحدة من أبرز طبيعة الأدلة وأهمها على الإطلاق من حيث أنها ربانية المصدر أي إنها من عند الله تعالى، لذا فقد جاءت خيرة بطبيعة الإنسان، وقناعات العقول، مراعية لمستويات الإدراك، وعنها تنبثق طبائع الأدلة الأخرى.

ولا تخفي ما للأدلة بهذه الطبيعة من أهمية .. فهي تقابل - إن صدق التلقي - بالوثوق، لأنها ليست من معطيات العقول وقرائحها، وإنما من نفحات الوحي الإلهي المعصوم ومقتضياته.. والمتسمة بكمال الإدراك، ودقة التناول، وعمق الدلالة .. المنزهة عن التفاوت والسطحية والقصور، وهذه من لوازم العقل.

ودليل هذا:

١ - قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كُرِّ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۚ لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾^(١).

٢ - وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾^(٢).

٣ - وقوله ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾^(٣).

(١) سورة فصلت (٤١، ٤٢).

(٢) سورة الحديد (٩).

(٣) سورة الحجر (٩).

فثمة آيات كثيرة إلى جانب هاتين الآيتين تبينان طبيعة الأدلة الربانية، فالله تعالى هو منزل الكتاب على نحو من الأحكام، وأودع فيه حكمته تعالى، وحفظه من التبديل والتغيير والتحريف، وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ .

المبحث الثاني

وضوح الأدلة

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أنها فى مجملها بينة الدلالة، واضحة المعاني، وبهذا الوضوح والبيان ينتفي اللبس والخلط، ويزول الإبهام، والغموض، ويترتب على ذلك رسوخ الدلالة، ورسوخ القضايا "مثار الاستدلال" في الذهن، ويتلاشى على أثرها الحيرة والتردد والته الذي ينشأ عن عدم وضوح الدلالة وإبهامها.

وذلك أن الأدلة ينبغى أن تكون هادية، ولا يتحقق هذا مع غموض وخفاء، فكيف يهتدي المدعو بشئ لا يفقه طبيعته، ولا يعرف مدلوله؟!، بل كيف يعتنقه ويؤمن به ويصدقه!!

ولعل هذا ما أشار إليه العلامة السمرقندي في تعريفه "البينة" بقوله: (هي في اللغة مأخوذة من البيان، وهو الظهور والإظهار ومن البينة، وهو الفصل: سمي المعنى الظاهر الفاصل بين الحق والباطل بيّنة. وهي في الأصل اسم لما يوجب العلم قطعاً.

ثم في العرف صارت مستعملة في الأمرين، ولهذا سميت الشهادة في باب القضاء بيّنة، وهي ليست بقاطعة^(١).

فالأدلة بينة، لأنها تفصل بين الحق والباطل، وتظهر الأول على الثاني، وتبرز المعاني وتوضحها، وهي موجبة للعلم قطعاً.

(١) ميزان الأصول في نتائج العقول المختصر للإمام السمرقندي، تحقيق: د / محمد زكي عبد البر (ص ٧٣) ط (٢) إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر ١٤١٨ هـ / ١٩٧٨ م.

من ثم ندرك قيمة تركيز منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على بيان طبيعة الأدلة من حيث بيانها.

ومن أدلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

١- قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١).

٢- وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنْ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

٣- وقوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

٤- وقوله تعالى ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(٤).

٥- وقوله تعالى ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾^(٥).

٦- وقوله تعالى مخبراً عما دار بين نبي الله موسى ﷺ وفرعون من مجادلة: ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾^(٦).

٧- وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٧).

(١) سورة المجادلة (٥).

(٢) سورة النور (٣٤).

(٣) سورة النور (٤٦).

(٤) سورة يوسف (١).

(٥) سورة الحجر (١).

(٦) سورة الشعراء (٩).

(٧) سورة الحديد (٩).

دلالات التأصيل:

[١] إن الآيات الكريمة جاءت لتبين وضوح دلالات نصوصها وأنه لا عذر لمعتذر بعد ترك هذه الدلالات، وتجاهل وضوح دلالاتها وبيانها لقضايا الدعوة، وهذا مدلول قول الله تعالى "وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين".

[٢] تبين الآيات الكريمة أن وضوح دلالات نصوصها جاء لهداية الناس إلى الحق، وعلى نحو يتحقق معه الانتفاع بما فيها من مواعظ وعبر وآيات، ومن علة بيانها أنها جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وهذا مدلول قوله تعالى "هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور" وقوله تعالى "لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

[٣] إن إنكار الأدلة بعد تبين وضوح مدلولاتها وقطعية ثبوتها لا يعدو كونه حماقة أو خبل أو خبط، ومدلول هذا آيات سورة الشعراء التي ذكرت ما دار بين فرعون ونبي الله موسى ﷺ من مجادلات، وإصرار فرعون على إنكار الأدلة بعد وضوح دلالاتها على صدق نبي الله موسى ﷺ في دعواه النبوة وضوحاً دحضت على أثره حجج فرعون، وتبين تهافت فكره، وضحالة عقله، وفساد اعتقاداته في تأليه ذاته، أو ادعائه الألوهية.

المبحث الثالث

انفاق الأدلة مع الواقع

من طبيعة الأدلة الدعوية في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنها تأتي متفقة مع الواقع، غير نائية عنه أو مجافية له، أو متناقضة معه. وكيف لا وهي تحثنا على فقه الواقع وتأمله وتدبره وتسيير النظر في آياته، واستخراج كوامن أسرارهِ.

وكيف لا وقد استنطق القرآن الكريم الواقع بها.. فهي مأخوذة مما نراه واقعاً ونشاهده ونلمس آثاره في الكون، ومما كان واقعاً من حياة السابقين آن نزول القرآن الكريم أو كان واقعاً من إخبار عن الأمم السابقة، وقد وجهنا القرآن الكريم إلى أن نتلمس آثارهم، ونتقصى خبرهم، ليبين لنا أنه ينصب الأدلة من واقع لا يمكن إنكاره أو تجاهله أو إغفاله، فليس أصدق في العقول من دليل ينبثق من واقع أو من مصدر أيقنت صدقة، وجزمت بصحة إنبائه.

فدلالة الواقع دلالة قطعية، لأننا نشاهده ونراه، ولا يمكن أن ننكره، ومن دلالات الواقع استدلال القرآن الكريم بأيات الخلق وتسيير الكون، وإمطة اللثام عن كثير من أسرارهِ، والحديث عن مظاهر حيويته من حركة الشمس والقمر، وحركة الأرض واتساع السماء الذي ما زال يحدث في الكون حتي الآن، والظواهر الكونية كالبرق والرعد والزلازل، مما أثبت العلم يقينيته، وكما ينصب القرآن الكريم الأدلة من خلال الحديث عن الماء والزرع والثمر والحشرات والحيوانات والطيور وما فيها من منافع ومضار، هذا على سبيل المثال لا الحصر، فالقرآن الكريم مُترع بهذه الشواهد الدلالية التي تتفق مع الواقع وتنسجم معه.

وهذا ما يفسر به واقعية الأدلة، ولا تعني الواقعية أن الأدلة منحوتة من الواقع بمعنى أنها انبثقت من البيئة بمعزل عن الوحي الإلهي، فهذا ما لا يمكن تصوره، وغاية القول في هذا أن القرآن الكريم لفت الأنظار إلى مظاهر الخلق وقضايا الكون، ليصوغ منها أدلة واقعية لا يمكن إنكارها.

فالقرآن الكريم وحي معصوم، ولم يأت عن طريق الانبثاق البيئي أو التأثير الاجتماعي.. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

تأصيل واقعية الأدلة:

من الأدلة التي تثبت واقعية الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ما يلي:

١- قول الله ﷻ ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿١﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَافِعٌ ﴿٢﴾﴾.

٢- وقوله تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

٣- وقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذِرِ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿١﴾﴾.

٤- وقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ

(١) سورة فصلت (٤٢).

(٢) سورة الذاريات (٥، ٦).

(٣) سورة لقمان (١٠، ١١).

(٤) سورة فاطر (٤٠).

الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسْتَعْمُؤْنَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾.

٥ - وقوله تعالى ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَلْقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٢٩).

٦ - وقوله تعالى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٣٠) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٣٢﴾.

٧ - وقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (٣١) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾.

٨ - وقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ (٣٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ ﴿٣٤﴾.

٩ - وقوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾.

(١) سورة الملك (٢٨ : ٣٠).

(٢) سورة يونس (٦).

(٣) سورة الدخان (٧ : ٩).

(٤) سورة الدخان (٣٨ ، ٣٩).

(٥) سورة القصص (٧١ ، ٧٢).

(٦) سورة الطور (٣٥ ، ٣٦).

دلالات التأصيل:

لا يخفى أننا بالتأمل في هذه الآيات الكريّيات، وإمعان النظر فيها، وإنعامه بها نستطيع إدراك ما يلي:

١- أحال منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن المدعو إلى واقع لا يمكن تكذيبه، كما لا يمكن إنكاره، فما يوعدون به محقق لا ريب، وهو واقعي، لأنه يتسم بالصدق، وهذا مدلول قوله تعالى "إنما توعدون لصادق".

٢- من دلالات الواقع أن الأثر يدل على المؤثر والسير يدل على المسير والبعر يدل على البعير، وعليه فالخلق يدل على الخالق، والصنة تدل على الصانع، والله تعالى يدل على وجوده ووحدانيته وإلهيته وقادريته، وخلقته وصنعتة، وهذا ما دلت عليه الآيات الكريمة، فبعد أن ذكر الله تعالى معالم من خلقه، من حيث خلقه السماء بدون عمد يري في الواقع، وإلقائه الرواسي في الأرض كي لا تميد بالخلق، وبعد أن عدد بعض مظاهر نعمه، وكلها أمور واقعية نراها ونلمسها ونشاهدها، قال تعالى ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾!

فهل يستطيع مدع ألوهية غير الله أن يأتي من الواقع بدلالات واقعية تقطع بصحة دعواه .. مثلما جاء به القرآن الكريم من دلالات واقعية تؤكد صدق قضايا الدين "ماذا خلقوا من الأرض"؟! أي أثر لهم، وأي صنعة تدل عليهم؟!

لا شيء!!!

٣- إقامة القرآن الكريم الأدلة من الواقع على قدرة الله تعالى المطلقة في تغيير طبيعة هذا الواقع وتحدي الإتيان بغير مرداه تعالى لتغيير طبيعة ما أراد الله تعالى تغييره.

وهذا مدلول قوله تعالى "قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يغير الكافرين من عذاب أليم"، وقوله تعالى "قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين" وقوله تعالى "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم

القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء .. " " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار
سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ... "؟" وتذليل
الآيتين "أفلا تبصرون"؟!

وكان الله تعالى يقول لهم: أفلا تسمعون هذا الإخبار الإلهي وتنظرون واقعته،
ثم أفلا تبصرون هذا الواقع الذي لا يمكن تغييره، وذلك النظام الذي لا يمكن
إبطاله، وهذا الاستدلال متفق مع الواقع ومنسجم معه، بل هو جزء منه، وآية من
آياته، ومعلم من معالمه.

المبحث الرابع

انسجام الأدلة مع العقل

من طبيعة الأدلة في منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم أنها أدلة معقولة لا يعجز العقل عن إدراكها، ولا يعيا عن فهمها، لأنها تعتمد على إقناعه بما يتفق وطبيعة عمله، بحيث يقنع به العقل ويتلقفه بالقبول، ولا يعارضه أو ينكره.

ذلك أن الأدلة راعت عند نصبها القسمة العقلية المنطقية، ووضعت أمام العقل شارات صدق الدلالة وواقعيتها وعقلانيتها، وقد جاءت لتراعي قدرات العقل الذهنية، وتبصر بطرق إقناعه ومحاجته إن أنكر بفعل الحجب التي تحجبه وتعوقة عن التأمل الصحيح، والنظر السديد، ولا ينكر القضية بعد ثبوتها إلا جاحد أو معاند أو منكر.

ولكي تقوم الحجة على العقل لابد من أن تتفق الأدلة مع مقدماته وتنسجم مع مبادئه، وتتفاعل مع معطياته تفاعلاً يدفع المدعو إلى التسليم بمقتضيات الأدلة ومقررات الدين، الأمر الذي يحقق قدرة الأدلة الدعوية على الإقناع وإمكانيات العقل وقدراته على الاقتناع، ثم الإذعان، ثم الاعتقاد، ثم اليقين.

ولم تطلب الألة الدعوية من العقل أن يوقن أولاً، ثم يفكر، فتلك نتائج قسرية، وإنما أوجبت عليه أن يعمل ملكاته فيما ينصب أمامه من دلالات، وأن يستنتج منها النتائج، ويستنبط منها الأحكام، ومما يحقق هذا الانسجام (أن كل ما يعارض الشرع من العقلية يعلم العقل فسادَه)^(١).

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم (١/ ١٩٥)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط (١) ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

وما كان هذا ليتحقق لو أن الأدلة الدعوية جاءت مترفعة على العقل، مجافية له، غير متفقة معه، أو منسجمة مع مدراكه.

ذلك (أن النظر العقلي والمنطقي والإنساني يقتضي أنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض أو اضطراب بين معطيات الوحي وقناعات العقل هذا التطابق المنطقي بين العقل والحقائق المطلقة، وما يأتي به الوحي، وهو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة... فكل ما يقرره الوحي لا بد أن يكون صادقاً منسجماً مع الواقع موافقاً له، إذ لا يتصور أن يكون الله ﷻ جاهلاً أو غاشياً أو مضللاً لمخلوقاته، وعليه فإن ما بينه لهم لا يمكن أن يتعارض مع حقائق الواقع، لأنه ما أنزله إليهم إلا للإرشاد والتعليم والهداية والتوجيه)^(١). سواء في ذلك الجوانب العقدية والتشريعية.

(ومن هنا ندرك بعض أبعاد دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"^(٢) " فبدون معرفة المآلات والعواقب التي تترتب على تنزيل الحكم على الواقع، يغيب الفقه الحقيقي في الدين، ويساء التطبيق، ويُتسفف فيه ويُعبث بالأحكام الشرعية، الأمر الذي يؤدي إلى العنت، وغياب الأهداف والمقاصد التي من أجل تحقيقها جاء الوحي الإلهي)^(٣).

(١) إسلامية المعرفة. المبادئ العامة. خطة العمل . الإنجازات (ص ٩١)، سلسلة إسلامية المعرفة (١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م بتصرف يسير، ومقدمة التفسير لابن تيمية (١٣ / ٣٤٠، ٣٤١) مرجع سابق، دار الحرمين للطباعة، بدون تاريخ..

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس بلفظ: (ضمني رسول الله ﷺ وقال: اللهم علمه الكتاب) (١ / ٢٥) كتاب العلم باب: قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب). وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: (اللهم فقهه) (٢ / ٣٩٠) كتاب الفضائل، باب: من فضائل عبد الله بن عباس.

وذكر ابن حجر في فتح الباري أن الحميدي ذكره في الجمع أن أبا مسعود ذكره في أطراف الصحيحين بلفظ: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)، وقال الحميدي هذه الزيادة ليست في الصحيحين وذكر ابن حجر أيضاً أن هذه الزيادة أخرجهما البغوي في معجم الصحابة، فتح الباري (٢ / ٢٩٥) كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ (اللهم علمه الكتاب) دار الغد العربي، ط (١) ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

(٣) مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب في الاجتهاد التنزيلى. د/ بشير بن مولود جحيش ص ١٢ سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد (٩٣) المحرم ١٤٢٤ هـ..

ذلك أن أصول الإسلام العقديّة والشرعية ومبادئه وأخلاقياته تتفق مع العقل إذا ما تجرد من معوقات الإدراك، وهي منسجمة معه في أطواره وأفكاره الناضجة، ومما يفتح باب الاجتهاد في فهم النصوص، واستنباط الأحكام التي ينضبط بها الواقع^(١)، ورد ما لم يرد فيه نص من معطيات الواقع وأطروحات الأحداث والمستجدات على القواعد الكلية المستنبطة من روح الشريعة الإسلامية والمؤيدة بنصوص الوحي الإلهي لاستنباط أحكامه.

ومما يؤكد هذا الانسجام بين الوحي والعقل، بناء التكليف على الاختيار، لتحقيق مفهوم الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل، والمنضبطة بهما، أضف إلى ذلك أن (مصدر العقل والوحي هو الله، فلا يمكن أن يقع التناقض والتعارض، وأن أي تعارض معناه ضعف في سند المنقول، أو عجز وخطأ في كيفية الاستدلال، وعند احتمال التعارض، فإن حكم الوحي المعصوم مقدم على حكم العقل المظنون)^(٢) وهكذا تحقق الإرادة المنسجمة مع الوحي والعقل.

فالدين لا يفرض قضاياه على المدعو فرضاً دون أن يقتنع بها عقلاً، ويشعر في ذاته بصدقها، فإذا قبلها عن طواعية وعن روية وإرادة وقصد، صار الاعتقاد بها فرضاً عليه، ونتيجة حتمية للإذعان لما يتفق وصيغ العقول السليمة، ولا يعني هذا أنه ينكر على الفطرة الإيمان بقضايا الدعوة ابتداء من ذاتها دون تفكير، فهذا يعبر عن سلامتها، فلا معنى للتكليف مع القسر أو الفرض، إذ التكليف مناطه الاختيار^(٣)، والاختيار يحسمه العقل بالتفكير الراشد، والتأمل الفاحص.

وإذا ما عُُمِّيت المدركات عن العقول أو تُعْمَد تعميم قيمها أمام العقل، بتعطيل

(١) راجع في هذا: بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله (١/ ٣٥، ٣٥) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١) ١٩٩٤ م.

(٢) مقدمة د/ عمر عبيد حسنة لكتاب العقل العربي وإعادة التشكيل (ص ١٧)، د/ عبد الرحمن الطريي، كتاب الأمة. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية قطر.

(٣) راجع: الموافقات للإمام الشاطبي (٢/ ٤١٥) وما بعدها، تحقيق: د/ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط (٣) ١٤٧١ هـ / ١٩٩٧ م.

وسائل الإدراك والتشويش على الفطر السليمة، فحتماً ستكون النتائج سلبية وغير معقولة، لذا تحتّم أن تكون مدعاة للإنكار ومثاراً للرفض، لأنها لم تكن منسجمة مع العقل، ولا متفقة مع معطياته ومبادئه، مما يضفي عليه هالات من الغموض، ودواعي الخلط واللبس، يدفع بها إلى دائرة الإبهام، والإيهام مثار للشك، ومدعاة للارتباب، من ثم تحتّم الحكم بعدم عقلانية المعارضة، وتحكيم الهوى في المنازعة.

تأصيل انسجام الأدلة مع العقل

من الأدلة القرآنية على هذا ما يلي:

- ١- وقول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).
- ٢- وقوله ﷻ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).
- ٣- وقوله ﷻ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).
- ٤- وقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٤).
- ٥- وقوله ﷻ ﴿لِيَذَّبُرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٥).
- ٦- وقوله تعالى ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ^٤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٦).
- ٧- وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِرِهِمْ^٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٧).

(١) سورة البقرة (٧٣).

(٢) سورة البقرة (٢٤٢).

(٣) سورة الزخرف (٣).

(٤) سورة العنكبوت (٤٣).

(٥) سورة ص (٢٩).

(٦) سورة طه (٥٤).

(٧) سورة طه (١٢٨).

٨ - وقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(١).

٩ - وقوله تعالى في أهل لوط ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾^(٢) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٣).

١٠ - وقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتْنًى وَفُرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾^(٤).

١١ - وقوله ﷺ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ۚ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْاَعْفُو كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٥).

١٢ - وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾^(٦).

دلالات التأصيل:

إذا ما تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي:

١- أن الله تعالى نصب الأدلة في القرآن الكريم من الكون والنفس ليعقلها الإنسان، وللتعقل مدلوله إنه يعني قلب الأدلة من سائر وجوهاها، والتفكر فيها، وتدبر معانيها، والانتهاء بها عما لا ينبغي أن يتصف به العقل من فساد في التصور، والاعتبار بما فيها من عبر لتدفع إلى الإيمان الحق.

(١) سورة النحل (١٢).

(٢) سورة العنكبوت (٣٤، ٣٥).

(٣) سورة سبأ (٤٦).

(٤) سورة البقرة (٢١٩).

(٥) سورة الأنعام (٩٨).

إنها إذن عملية عقلية عميقة وواسعة لا تقف عند حد معين، ولا تنتهي عند مظهر بذاته، فالأدلة ينبغي، بل يجب ألا تمر على العقل كالبرق الخاطف، أو بما نطلق عليه "التميرير" دون تأمل أو تفحص أو تدبر أو نظر.

فالنظرة العَجَلِي لا تفيد ولا تغني ولا تسمن من جوع، فهي ليست محل تدبر أو تأمل، كما أنها مظنة تفويت الحكمة على العقل.

٢ - من ثم نجد هذه الآيات الكريمة لا تتحدث عن التعقل فقط وإنما نجد لها تتسع لتشمل مترادفات كثيرة هي في النهاية ثمرة جهد عقلي، وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾^(١). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٢).

٣. الآيات تخاطب العقول السليمة:

توجهت الآيات إلى العقول السليمة الفاحصة المتأملة العاملة المقدرة للمكاتها وطاقاتها الفاقهة ببواطن الأمور، الباصرة بعواقبها، المتفعة بالتفكير والتعقل وعابت العقول التي أهملت تلك الطاقات والقدرات، وعمت وسائل إدراكها وأعاققتها عن التأمل والنظر والانتفاع بأوامر الوحي الإلهي وتوجيهاته، ولو أنها فعلت لأثمرت ثمرات ناضجة، ولكنها تقاعست عن ذلك أو تجاهلته أو استكبرت على تفهمه، وأنكرت قبول ما لا يميل به الهوى، ولفتت الآيات الكريمة أنظارهم إلى ضرورة النهوض واليقظة من هذا السبات، والإفاقة من تلك الغفلة .. ولكن قومًا لا يفقهون !!!

٤. فقه الدلالات في مقدور العقل:

بينت الآيات الكريمة أن فقه دلالات الأدلة وتأملها وتدبرها أمر ممكن عقلاً،

(١) سورة محمد (٢٤)، وسورة النساء (٨٢).

(٢) سورة يونس (٦٧)، وسورة الروم (٢٣).

لذا خاطبت العقل بذلك ولو لم يكن ممكناً ما كلفته به لأن الله تعالى لا يكلف الإنسان بما لا يطيق.

وطالما أنه تعالى أمر العقل بفهمها، إذن فهي في مستوى الإدراك، وهي دلالات معقولة.

وطالما أنه تعالى أمر العقل بفهمها ومعرفة وجوها واستنباط شارات الدلالة والأحكام منها واستخلاص النتائج، والوقوف على العبر والعظات التي تدل عليها، إذن فهي دلالات معقولة، أي أنها في مستوى الإدراك.

الذين يعطلون وسائل الإدراك:

تشير الآيات الكريمة التالية إلى خطورة تعطيل وسائل الإدراك عن ممارسة دورها الإدراكي، لما له من آثار سيئة على مسيرة الاعتقاد والسلوك، وتنعي على أولئك الذين عطلوا وسائل إدراكهم، وتنزّلهم بسبب ذلك إلى درجة البهيمية.

١ - قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(١).

٢ - ومدلول قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ^(٣).

٣ - ومدلول قوله تعالى ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٤).

٤ - ومدلول قوله تعالى ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾^(٥) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ^(٦).

(١) سورة الحج (٤٦).

(٢) سورة الأنفال (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة يونس (٤٢).

(٤) سورة الروم (٥٢).

فهؤلاء وأولئك لم يُعملوا عقولهم في فهم قضايا الدين التي نصبت من أجلها الأدلة، لأنهم عطلو وسائل إدراكهم عن فهم الحق الظاهر والواضح وأبوا إلا الإنكار والمعارضة!!

لعله قد اتضح مما سبق طبيعة الأدلة من حيث كونها معقولة تتفق مع العقل، تنسجم مع مقدماته ومبادئه، كقاعدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، ولا يخفي ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في قناعة الإنسان بالدين وإذعانه له واعتقاده به.

المبحث الخامس

التأثير البالغ

لا مرية أن التأثير البالغ أحد معالم طبيعة الأدلة الدعوية في القرآن الكريم، وهذا التأثير لا يقتصر على العقل فقط باعتباره مخاطباً بفهم الأدلة، ومعرفة بطبيعتها ومقتضياتها، وصياغة المقدمات واستخلاص النتائج، وإنما يمتد ليتعمق في جنبات النفس الإنسانية، ويسبر أغوارها، ويكشف عموضها، ويبرز حقيقتها، ويوضح إيجابياتها، ويومئ إلى سلبياتها، فالقلب يخشع لها، والنفس تهفو إليها، والآذان تصغي في خجل، وتحضع الجوارح في أنين لجلالها وهيمنتها، ويجد العقل فيها ما يشبعه ويغنيه، ويسعده ولا يشقيه، وإذ تخاطبه لا تعيه، وتقدر طاقاته، ومن الانحرافات تحميه، وتأنى به عن الشطط وباليقين تغذيه، وإلى الحق ترشده، ومن متاهات الباطل تنجيه.

وكيف لا وجلال الحق يظهر من ثناياها، والنور يتلألأ في طواياها، إنها كلام الله تعالى الذي يخضع له الكون ويدين، وتخشع له الجوارح وتلين، وتخضع له الجبابرة ساجدين.

تأصيل التأثير البالغ للأدلة

والقرآن الكريم مترع بالأدلة التي توضح تأثير الأدلة القرآنية على الكون والإنسان ومنها ما يلي:

١ - قول الله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

(١) سورة الحشر (٢١).

٢ - وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ ۝

٣ - وقوله تعالى ﴿ إِنَّا وَلِيُّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢﴾ ۝

٤ - وقوله ﷺ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾ فَأَثَبُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ جَنَّتِ حَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَتَهَرُ خُلْدِينَ فِيهَا ۖ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ۝

٥ - وقوله تعالى ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن تَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ۝

٦ - وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۖ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥﴾ ۝

(١) سورة الأنفال (٢: ٤).

(٢) سورة الأعراف (١٩٦).

(٣) سورة المائدة (٨٣: ٨٥).

(٤) سورة طه (٨: ١).

(٥) سورة يونس (٣٥).

٧ - وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وَبَجَعُلُ الرِّجْسِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿^(١).

٨ - وقوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(٢).

٩ - وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَدْيَعٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْثُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مِثْلَانِ تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾^(٣).

١٠ - وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَلِيُّ حُدِّ الْقَهْرُ ﴾^(٤).

١١ - وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴾^(٥).

وهذا مدلول قوله تعالى "إنه لقول فصل وما هو باهزل"، وقوله تعالى "أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي" وقوله تعالى "قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور..." وغير ذلك من الدلالات القرآنية الكريمة المذكورة وغير المذكورة.

(١) يونس (١٠٠).

(٢) سورة هود (٥).

(٣) سورة الزمر (٢٤).

(٤) سورة الرعد (١٦).

(٥) سورة الطارق (١٣، ١٤).

دلالات تمتع العقل وتؤنس القلب

دلالات التأصل

لا يخفى على من يتلو هذه الآيات إدراك شارات التأثير البالغ على النفس وعلى العقل .. فالعقل يجد فيها طلبته من متعة الإقناع، وصدق الدلالة، وقوة البرهان، وجزالة اللفظ، وروعة البيان، ودقة التأمل، وحسن الفكرة، والحجج القاطعة لجدل العقول، وقطع النزاع وفصل القول، وحسم أوجه الخلاف في المعقولات، إنها دلالات تتأبى على القياس، ولا تستطيع أن تأتي بها العقول والحواس .

والقلب يستشعر تلك المعاني المقدوفة من الغيب المطلق التي جاءت لتستحوذ عليه، وتملك سويده، لا يجد أمامها مناصاً من الخشوع، ولا مفراً من الإذعان والخضوع.

إنها تستثير كوامن مشاعره .. تحرك حالة جموده .. تهزه لتنفذ عنه ران ما كسب .. تملأه بنور اليقين، وبرد الإيمان .. تكره إليه الكفر والفسوق والعصيان .

إنها دلالات تلين لها القلوب وتتشعر منها الجلود، لكن أي قلوب وأي جلود .. إنها قلوب الذين يخشون ربهم بالغيب، وجلودهم .. يستشعرون هيئته فيخضعون له، ويركنون إليه .. يستنصرون به على أنفسهم الأمانة بالسوء، ونزعاتهم التي تدفعهم إلى المنكرات، وأهوائهم التي تدفعهم إلى ترك الخيرات .. يثقون بهذا النصر، ويعتزون به ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(١).

وهذا مدلول قوله تعالى "تتشعر منها جلود الذين يخشون ربهم بالغيب ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" وقوله ﷺ " ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" وقوله تعالى " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي إلا تذكرة لمن يخشى".

ولعلك تلاحظ هذا التأثير البالغ في النفوس في شهادة أعداء القرآن أنفسهم

(١) سورة آل عمران (١٦٠).

الذين حاولوا أن يصفوه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، فهي هو المغيرة بن شعبة لا يتمالك نفسه أمام تلك المشاعر النفسية التي تهزه من داخله حينما سمع القرآن الكريم، وقد عبر عن ذلك حين سألته قريش عنه فقال: (ماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه أو قصيده مني ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيء من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه يعلو ولا يعلي عليه، وإنه ليعظم ما تحته)^(١).

وتستطيع أن تقف على العديد من النماذج للتأثير النفسي للقرآن الكريم في كتب السنة والسير والتراجم^(٢).

إنها إذن دلالات تراعي ما في النفس الإنسانية من قوى وطاقات وقدرات وإمكانات.

ذلك أن (في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداها فتنبّ عن الحق لمعرفة وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة والوجدانية)^(٣).

إنها دلالات كلام الله تعالى (فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق بالجمال معاً يلتقيان ولا

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١٩٨/٢) دار النصر للطباعة بالمدينة المنورة ١٩٦٩م، والسيرة النبوية لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (١/ ٤٩٩) دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، وإعجاز القرآن للباقلاوي، تحقيق: أحمد صقر (ص ٥٣) وما بعدها، دار المعارف المصرية ١٩٧٧م.

(٢) منها على سبيل المثال: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٦٧) بيروت ١٩٨٥م، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ١٧٦) مطبعة الحلبي ١٩٥٩م.

(٣) النبأ العظيم: د/ محمد عبد الله دراز (ص ١٣، ١٦) دار الثقافة، الدوحة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، الرسالة اللدنية من العقود والآلي للإمام الغزالي (ص ٧) المطبعة المحمودية التجارية بدون تاريخ.

يبغيان ... ألا ترى القرآن الكريم في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من
حكمة وعبرة؟

أو لا تراه في مَعْمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق
وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيث وتأنيب؟ يث ذلك في مطالع آياته
ومقاطعها وتضاعيفها^(١).

هذا التأثير شهد به أعداء الحق ومنكرو الرسالة والمعترضين على الوحي الإلهي.
لعله قد اتضح من خلال ما سبق طبيعة الأدلة الدعوية في منهج الدعوة
الاستدلالي في القرآن الكريم من حيث قوة تأثيرها على العقل والقلب معًا.

(١) النبأ العظيم (ص ١٣، ١٦).

المبحث السادس

القطع والإلزام

القطع والإلزام أحد أبرز طبائع الأدلة الدعوية لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، أما قطعيتها فقد جاءت من بيانها وتساوقها مع الواقع، وانسجامها مع العقل، وانبثاقها عن الحكمة الإلهية.

وأما إلزامها للخصوم المنكرين والمعارضين والمجادلين والمشككين، فلأنهم لم يستطيعوا معارضتها، والإتيان بمثلها في وضوح معانيها، وقوة حجتها وسلامة براهينها، ونصوح دلالاتها، وصدق بيناتها، ودقة مفرداتها، وإحكام عباراتها، فإن لم يؤمنوا بها فقد ألزمتهم بضرورة الإيمان بصدق قضايها، إلا أن يأتوا بمعارض، وقد تعذر هذا عليهم من قبل، ومن هنا تسقط أباطيلهم، وتدحض حججهم، وتتهافت آروهم وتصوراتهم.

ومن ثم لم يجد المنصفون منهم - إذا ما صفت قرائحهم، واعتدلت فطرهم، استقامت طويتهم، وحسنت نياتهم - مناصاً من التسليم لما ألزمتهم به، والإذعان لما أظهرته في عقولهم من بينات، والانصياع لما تضمنته من حقائق وآيات.

تأصيل دلالة القطع والإلزام:

لعل قطعية الأدلة الدعوية في القرآن الكريم وإلزامها واضح من خلال ما سبق سوقه من آياته تبيين طبيعتها من حيث ربانيتها، وبيانها، وانسجامها مع العقل، واتفاقها مع الواقع، هذا فيما يتعلق بقواطع دلالة النصوص القرآنية على أن نصوصاً أخرى في القرآن الكريم تحمل دلالات ظنية (احتمالية) تحتل أكثر من معنى، وهذا

لا يقدح في قطعية دلالات القرآن الكريم من حيث الوجود والتلقي، ومن حيث ما ورد منها قطعي الدلالة، أو ظنيها.

وقطعي الدلالة وظنيها جاء رحمة بالعقل، ليقطع بما زوده الوحي الإلهي به من معان لا مجال له في العمل بها، وليس له إلا التسليم ليوفر له الجهد والوقت ويدفعه إلى أن ينشط في عمله، وليفتح للعقل باب الاجتهاد في فهم نصوص القرآن الكريم فيما أورده من دلالات ظنية مراعاة لما رُكِّب فيه من طاقات وقدرات ذهنية، وتطلع إلى المعرفة والتأمل والبحث، وإضافة إلى إثراء الفكر بالتنوع والتعددية توسعة على الأمة ورفعاً للحرَج والمشقة.

ومثال الدلالات الظنية قول الله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(١) فلفظ (الْقُرْء) في اللغة العربية مشترك بين معنيين، فهو يطلق لغة على الطهر، ويطلق لغة على الحيض، فيحتمل أن يراد به ثلاثة أطهار، ويحتمل أن يراد ثلاثة حيضات^(٢).

ومن ذلك أيضاً لفظ (النَّد : للمثل والصد. و "الدين" الطاعة والجزاء. و "عسعر" إقبال الليل وإدباره)^(٣).

وكما لا تقدح الدلالات الظنية في قطعي الدلالة، فلا تقدح في إلزام الدلالة، إذ لا يعني احتمال ورود أكثر من معنى للنص القرآني الكريم في ألفاظه العامة أو المطلقة أو المشتركة ترك كل المعاني، وعدم العمل بها، وإسقاط حجيتها، فهذا عبث بآي القرآن الكريم، وقلة دراية، وخطأ منهج، فالآية ملزمة على أي من المعاني التي تحتملها.

وهذا كما قلنا من باب التوسعة ورفع الحرب والمشقة عن الأمة، فمن أخذ بمعنى

(١) سورة البقرة (٢٢٨).

(٢) علم أصول الفقه: الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٣٥) دار القلم، ط (٢) ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

(٣) التحرير في علم التفسير للإمام السيوطي. تحقيق: زهير عثمان نور ص (٣٨٧) مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية، ط (١) ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.

الطهر في دلالة (القرء) فهو ملزم له، ومن أخذ بمعنى الحيض في دلالة فهو ملزم له، وهذا تأكيد لحجية الآية الكريمة وبيان مدى روعة النص القرآني ومرونته ومراعاته لطبيعة اللغة العربية، وطبيعة العقل البشري.

(ومن شأن هذا أن تنمو الحياة العلمية باستمرار، وأن تكون في خدمة الحياة الإنسانية، ومواكبة لها في تطورها وتجدد أحداثها، فلا يكون العلم بمعزل عن الحياة، ولا يكون الدين غريباً في دنيا الناس)^(١).

ومن ثم تتأكد حجية آي القرآن الكريم (فكتاب الله تعالى دليل على كلامه، وكلامه صدق لا محالة، فيجب الإيمان والعمل به، قال الله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٢) (٣)).

تعقيب:

يتضح من خلال ما سبق بيانه أن قاعدة "بيان طبيعة الأدلة" واحدة من أبرز قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، لما لها من أهمية بالغة في الإقناع والاقتناع .. والتأثير والتأثر^(٤)، والخضوع والإذعان، إذ لا يجد المدعو بعد بيان طبيعتها إلا التسليم بها، واعتناق قضايها، ترسيخ مفاهيمها، والإيمان بقيمتها.

(١) منهج البحث في العلوم الإسلامية: د/ محمد الدسوقي (ص ١٥٧) مرجع سابق.

(٢) سورة الأنعام (١٥٥).

(٣) ميزان الأصول في نتاج العقول (المختصر) للإمام السمرقندي، تحقيق: محمد زكي عبد البر (ص ٧٩) مرجع سابق.

(٤) نقصد بالتأثر: تأثر المخاطبين بها لا أنها تأثرت بمؤثرات مغايرة أو خضعت لمفاهيم بشرية.. حاشا لله.